لطائف اللغة

بقلم رياض معلوف

هذا كتاب نفيس من مكتبتنا المعلوفية الحافلة بامثال هذه الكتب وهو من تأليف احمد بن مصطفى البابيدي الدمشقي المتوفى سنة الف وثلثمائة وثمانية عشرة هجرية وكتاب — لطائف اللغة — هذا طُبع في الاستانة سنة الف وثلثمائة واحدى عشر هجرية. وعلى ما يظهر لنا ان المؤلف اعتمد على المؤلفات الآتية: فقه اللغة ، وفصيح ثعلب ، ومزهر السيوطي ، والاشباه والنظائر وبعض معاجم اللغة لاستكمال درسه والالمام بذخائر الفصاحة ونفائس اللغة العربية التي هي من اغنى لغات البشر لما فيها من مترادفات ومفردات وآيات . واحياناً نجد للطر ستة وخمسين اسماً ومن غريب اسمائه الشقيقة ، والمَرْمَرة ، الطَبَق والنضيضة ، الشفيف ، الباكور ، والهميم وغيره ... وللناقة ما يقارب الخمسين اسماً كما للسيف والاسد وغيرهما مما لو جئنا نعدّه فلا نستطيع احصاءه !

وللناقة انثى الجمل ما يربو على المئتين والخمسين اسماً وهذا مما يُذهل المرء ويبهره . فما هذه الثروة اللغوية التي لا حدّ ولا نفاد لها .

ولطائف اللغة هذا جامع لكل فنون الكلام والنحت والتعابير والاكتشافات اللفظية والمعنوية الخلّابة فتقول : القِنة بمعنى = اعلى الرأس ، والبدن ، والقامة . وفي وصف محاسن العين : الدَعَج ان تكون العين شديدة السواد مع سعة المقلة العَجَج شدة سوادها وشدة بياضها ، النَجَل سعتها — الكَحَل سواد جفونها من غير كُحل — الحَوَر اتساع سوادها كما في اعين الظباء ، الوَطَف طول اشفارها وتمامها ، والشهلة حمرة في سوادها . ونظم بعضهم في سحر العين وغنيّ مترادفاتها قصيدة هذا مطلعها :

هنيئاً قد أقرَّ الله عيني فلا رَمَتِ المدى أهلي بعيني

الاصابة وهذه مؤلفة من ثلاثين بيتاً من الشعر التزم فيها ناظمها قافية العين وكل عين منها بمعنى مختلف عن الآخر .

ومن لطائف الكلام قولك : العصفور — الطائر ، والعصفور — الجراد الذكر والعصفور الكتاب ، والعصفور الصيد كما العصفور ايضاً هو : مسمار السفينة ، وخشبة الهودج ، واصل منبت الناصية .

وفي القاموس : النَضر والنَضير ، والنُضار والانضر الذهب او الفضة .

وللسيف ما يناهز الستين اسماً وما فوق ونعوته ما يقارب الثلاثين نعتاً . واذا كان السيف عريضاً فهو صفيحة ، او صقيلاً فهو خشيب ، او ماضياً فهو رسوب ، وإصليت ، وان طُبع بالهند فهو مهند ، وان كان كليلاً لا يمضي فهو كُهام الى غير ذلك مما يطول شرحه !

وللعصا اسماء والقاب عديدة وكثيرة. ومن غريبها القَصيد والقَصِيدَة العصا ومما جاء في فقه اللغة : اول مراتب العصا : المخصرة ، واذا استظهر بها المريض : فهي المنسأة ، وان طالت فهي المهراوة . وكذلك الرمح اوصافه كثيرة منها الأظمى للاسمر منه ، واللهذم للقاطع والخطي والرديني ! وغيره وغيره ! ومما جاء في القاموس والثعالبي عن التراب : الثرى هو التراب الندي ، والهابي تراب القبر ، والغول للتراب الكثير والدَرْمك للتراب الناعم. وايضاً للغبار عدة اسماء ونعوت غريبة منها الهِيْر غبار الاقدام والرَهَج غبار الحرب والكوثر الغبار الكثير . والاشجار منها الشجرة الغضة والقَفْلة والقَنْلة الشجرة اليابسة وغير ذلك مما لا يحصى .

ويقولون للنخلة — الخوّارة — اي غزيرة الحمل والجليلة والصعلة التي فيها عِوَج . وفي المطلق والمقيَّد لا يقال كأس الّا اذا كان فيه شراب ، والّا فهو زجاجة ، ومائدة الّا اذا كان عليها طعام والّا فهو خُوان ، وكوز الّا اذا كان له عروة والّا فهو كوب . ولا يقال عويل الّا اذا كان معه رفع صوت والّا فهو بكا ، ولا يقال ثرى الّا اذا كان نديّاً والّا فهو تراب . ولا يقال للشجاع كميّ الّا اذا كان شاك السلاح والّا فهو بطل ! ولا يقال للفرس مُحجّل الّا اذا كان البياض في قوائمه الاربع او في ثلاث منها . وفي المثنيات التي لا تُفرد : الازهران الشمس والقمر ، المصران ، مكة والكوفة ، الابتران العبد والعَيْر الحجران الذهب والفضة ، الاصفران الذهب والزعفران ، والاسودان التمر والماء ، الاحران الخمر واللحم .

وفي الكليات: كل ما علاكَ فاظلكَ فهو سماء . كل بناء عالٍ فهو صرح ، وكل إناء يشرب فيه الشراب فهو ناجود. كل شيء دبَّ على الارض فهو دابة ، كل بستان عليه حائط فهو حديقة وكل ما اتضع في الارض فهو نجد . وكل شيء به قَدَر وخَطَر فهو نفيس .

ومما جاء في تفضيل الاشياء العظيمة القَهْب الجبل العظيم ، الفيلق الجيش العظيم ، الثمان الحيّة العظيم والرتاج الباب العظيم .

وفي اوائل الاشياء : الصبح اول النهار والغسق اول الليل والنهل اول الشرب ، والنعاس اول النوم والرَّيْثي اول المطر .

وفي تقسيم الحسن : الصباحة في الوجه ، والملاحة في الفم ، الوضاءة في البَشَرة الظَّرف في اللسان ، الجمال في الانف ، الرشاقة في القد ، والحلاوة في العينين ! وفي ترتيب البياض : ابيض ثم يَقق ثم لَهِق ، ثم واضح ثم فاصع ، ثم هجان وخالص .

وفي سواد الاشياء : الحالم الغراب الاسود ، السلاب الثوب الاسود ، الوَغْن الصب الاسود ، والحال الطين الاسود .

وفي تقسيم الاطراف يقال ظفر الانسان ، منسم البعير ، لبنك الفرس ، ظلف الثور ، برثن السبع ، ومخلب الطائر .

وفي تقسيم الاشارة : اشار بيده ، اومأ برأسه ، غمز بحاجبه ، رمز بانفه ، ولمع بثوبه ، والاح بكفه. ويقال في الموت والميت: قضى نحبه ، بلغ الميقات ، استكمل مدته ، حان يومه ، لفق اصبعه ، تصرّم اجله وخلا مكانه .

وفي الالفاظ التي تأتي لمعانٍ عديدة : الذنوب ، الدلو ، الذنوب القبر ، الذنوب الفرس الوافر الذَّنَب ، الذنوب الحظ والنصيب. والجون الاحمر ، والابيض والاسود والنهار والقناة والعصا ، القناة مجرى الماء. والقناة حفرة النخلة . والجفن غطاء العين ، وغمد السيف واصل الكَرْم وفي الاسماء المخصوصة: الملاذ ، والملاوذ والملذان والملذاني المتضع الذي لا تصحّ مودته .

وللخال سبعة وعشرون اسماً وقال العلامة عبد الباقي البغدادي من قصيدة طويلة التزم فيها قافية الخال كلها ومطلعها :

الى الروم اصبو كلما اومضَ الخالُ فأسكب دمعاً دون تساكبه الخالُ

فالمثال الاولى هي بمعنى البرق والثانية بمعنى السحاب ! وكلها على هذا النمط .

ومما جاء في الكلمات لمعانٍ متعددة : الطائر ولها معنى الدماغ وما تمنيت به او تشاءمت والحظ ، ورزق الانسان ، وعمل الانسان الذي قُلِّدَهُ ! وهكذا على الابجدية عشرات لا بل مئات الكلمات !

ومن امثال العرب قولهم : ان الهزيل اذا شبعَ مات ، يُضرب لمن استغنى فتكبّر . ثمرة العُجب المقت ، لمن تعجّب بنفسه ومقته والناس ، رمى الكلام على عواهنه ، يُضرب لمن لا يبالي أصاب أم اخطأ .

والكثير غير ذلك من الطرائف واللطائف والروائع والبدائع التي لا تعد ولا تحصى وهي كالبحر الزاخر الذي لا اول ولا آخر له ، وكلما غرفتَ منه زدت عطشاً .

واخطأ الذي قال عن الهمذاني انه لو ادركه في عصره لقطع يديه لانه جمع — في الالفاظ الكتابية — شتات اللغة والالفاظ والمعاني كما جمعها في — لطائف اللغة — العلّامة احمد بن مصطفى اللبابيدي الدمشقي هذا ، وانا لو كنتُ في زمانهما لقلت لهما سلمت يداكما الكريمتان والخيرتان النافعتان !